مناهج التحليل السيميائي

الأستاذ **علي زغينه**
جامعة محمد خيضر بسكرة

من البدء لابد من الإشارة بأنه لكي يكون ثمة تحليل، لا بد من وجود شيء يحلل، والفاعل الذي يقوم بالتحليل، وهو القارئ/الناقد. وهذا الثلاثي، النص، القارئ، التحليل، هو قوام عملية التلقي أو الفعل الاتصالي الذي قوامه الملامح الستة التي أشاعها مخطط "جاكسبون" وهي: المرسل، المتلقي، قناة الاتصال، الرسالة، الشفرة، السياق.

ولكي يحقق القارئ -وأعني هنا القارئ النوعي أو الناقد- هدفا اتصاليا تحليليا كهذا لا بد له من:

1. آليات نقدية تتمثل في المنهج ومصطلحاته وطرائقه.
2. زاد معرفي متنوع وغير قليل حتى يتمكن من التعاطي مع علامات النص أو العمل الأدبي ككلمات وإشارات ورموز وأساطير، وفهمهما في النهاية على أساس علامات أدبية واجتماعية.
3. التوكيد على ضرورة امتلاك منهج نظري في الأول، وعملي في مرحلة متقدمة، وعنيت بالمنهج النظري ما هو متعارف عليه من شان مفهوم المنهج ومحدداته وأصوله التاريخية والفلسفية، وأخيرا مراحله وأدواته الإجرائية.

أما المنهج العملي، أو المقاربة التطبيقية، فمرحلة تالية للمرحلة السابقة، وهي تجسيد لكل أو معظم ما هو نظري، في المرحلة السابقة. وفي هذا الحال يكون المنهج بمثابة إطار مادي تنظيمي لمحتوى هو المضمون أو هو الموضوع أو الأثر أو النص الأدبي موضع الدراسة.

وللأهمية البالغة التي يكتسيها المنهج؛ نشير إلى أن الدراسة المنهجية المتكئة على منهج ما تخول للناقد سلوك طريق واضح مأمون، فلا يضطرب نقده، ولا يخبط في الدرس والتحليل خبط عشواء. ومذ كان الأدب شعرا ونثرا كان النقد مواكبا له، متذرعا بنظرية -كيفما بدت بسيطة في ما بعد زمنها- أو منهج معلوم من المناهج، سواء تلك التي تعاين النص وتصافحه من الخارج، وتحاول الاقتراب منه ما وسعها، وربما أثقلته أو أثقلت عليه بحيثيات ومعطيات لا صلة كبيرة لها بالموضوع -موضوع النص- أو لا علاقة لها به البتة.

وتلك المناهج التي تشيح عن كل ما هو خارج النص، وتنصرف عن كل ما يحيط به من ملابسات وظروف، وتنكفئ على داخل النص تستجوبه بلطف حينا، وتعمل فيه المبضع أو تفتته بعنف في أحايين كثيرة. وقد تبرر هذا الصنيع أو ذاك بالحيدة، والموضوعية، والعلمية، وغيرها من المبررات بما فيه موت المؤلف، ودراسة النص المكتوب في عزلة عن كل ما سواه.

وذلك ما قامت عليه نظرية التواصل عن البنيويين، حيث نادت «بقتل الإنسان واستبداله بالنسق...إن سيميائيات التواصل بالإمكان وصفها بأنها تبقى في حدود الإرسالية، أما مستوى المرسل والمتلقي أو الترميز فهو يبقى من صلاحيات علم النفس»

وثمة اعتبار آخر في هذا المنحى الذي تنحوه البنيوية هو «الوهم النقدي في الاعتقاد بأن النص له معنى وحيد. في كثير من الحالات ما يعلن المؤلف عن نفسه فيما يكتب، وعندما يصير العمل الأدبي منتهيا يستغل عن قائله، ولا تتحدد قيمته فيما افترضه المؤلف، وإنما فيما يعبر بالنسبة لقرائه المحتملين، وكما يقول بارت عن حق: إن عملا خالدا لا يعود إلى ما يفرضه من معنى وحيد على أناس مختلفين، ولكن بما يثيره من معان مختلفة عند رجل واحد».

بهذا المفهوم وغيره من المفاهيم المتعددة؛ بات النص وحيدا في الواجهـــة، ولا بد من مجابهة رياح النقد المنهجي.

وقد كان التعدد والاختلاف من نصيب الســـيمياء منـــذ لحظـــات ميلادهـــا بوصفها العلم الذي يدرس العلامات والنظم الثقافية، وفي الحقيقـــة فإنـــها شـــهدت لحظتي ولادة في مكانين وزمانين مختلفين، ففي الوقت الذي كان فيه عالم اللغـــة فرديناند دي سوسير (1857-1913) يدرس علم اللغة معتقدا أنه سيكون جزءا مـن علم أكبر هو السيميولوجيا، كان المنطقي الأمريكي تشارلز بيرس (1893-1914) يبشر بميلاد علم جديد يكون أساسا للمنطق هو السيميوطيقا أو السيمياء. وفي حيـن جعل سوسير نظامه ثنائيا؛ جعل بيرس نظامه ثلاثيا ثم طور تلاميذ كلي العـــالمين مشروعيهما كلا بمعزل عن الآخر، فطعم الشكلانيون الروس ولغويو مدرسة براغ وبنيويو مدرسة باريس لسانيات دي سوسير، بينما يستمر مشروع بـــيرس لـــدى موريس وكارناب وسواهما. ومازال الأوروبيون (ولا سيما فـــي العـــالم النـــاطق بالفرنسية) يؤثرون مصطلح دي سوسير، بينما يؤثر الأمريكيون مصطلح بـــيرس. ويزداد انقسام السيميائيين فيما بينهم بالقضايا المتعلقة بالأدب، إذ تختلف المقاربـــات ليس فقط باختلاف الأجناس الأدبية، بل باختلاف المدارس أيضا.

وإذا كانت السيمياء موضوعية منذ نشأتها، فإن التأويل لم يكن كذلك، لأنـــه بدأ في الأساس -ربما مع بدء اللغة- من الاهتمام بالبحث عن المعنـــى القصـــدي الذي يخفيه المؤلف في مكان ما من نصه.

ولذلك فقد احتضنت التأويل الاتجاهات الفلسفية والأدبية الذاتية والشخصانية و الظاهراتيه التي تهتم بذوات المؤلفين، في محاولة لترسيم المعاني الكامنة ضمنـــا في نصوصهم. غير أن هذا "التأويل" سرعان ما تعدد وانقسم أيضا. وهكذا ظـــهر التأويل بما فيه الموضوعية والذاتية والنصية واللغوية لينافسه فيما بعـــد مـــا وراء التأويل، وضد التأويل، وتأويل التأويل.

ونظرا لأهمية الموضوع -موضوع الملتقى- وحاجتنا الماسة -أساتذة وطلبة- لإنجاز بحوثنا ودراستنا في إطار أكاديمي علمي، من منظورات حداثية تتجاوز المألوف أو تطمح لذلك، فإن الأنسب لمداخلتي هذه أن تنصب على منهج في التحليل السيميائي، بتبيان ملامحه والكشف عن خطوطه العريضة، عسى هذا العمل يلقى ولو بصيصا من النور أمام طلبتنا وهم يقتحمون ظلمات النص ويرتادون مجاهيله.

على أنه من المفيد -قبل الولوج في صميم الموضوع- التذكير بسيرورة علم الدلالة وتمظهره في اتجاهات سيميولوجية. فقد مر علم الدلالة بمراحل ثلاث: فالأولى كانت دراسة تاريخية كما لدى Breal. وفي الثانية غدا هذا العلم بحوثا ودراسات في النظريات والحقول الدلالية. وفي المرحلة الثالثة، وصل هذا العلم إلى علم الدلالة البنيوي الذي يرى أن البنى اللفظية بعددها الصغير جدا هي نفسها دائما في كل مكان، وأن كل بنية منها لا تغطي إلا حقلا مفهوميا مختصرا، وأن هذه البنى اللسانية تتناسب مع بنية مفهومية، وأنه ينبغي ألا نخلط حقلا دلاليا مع نسق صوتي أو وظيفي؛ يعتبر كل عنصر من العناصر ضروريا لعمل المجموع الذي وحده يستحق اسم بنية. وذلك أن الحقل الدلالي مكون من مجموعة من العلاقات ولكن ليس بشكل ضروري أو آلي.

وهذا هو مشروع (علم الدلالة البنيوي) مع اختلاف في المعالجة والدراسة بين المناهج التوزيعية، والتوليدية، والاشتقاقية، والإحصائية.

فالمنهج التحليلي التوزيعي يعتمد على النظرية السلوكية، ويتزعمه "بلومفيلد" في الولايات المتحدة الأمريكية. ويرى هذا المنهج أن الكلمات لا معنى لها خارج سياقها، وأنه ليس للكلمة إلا وظائفها، وأن علامات الكلمة ضمن الخطاب مع الكلمات الأخرى هي التي تحدد معناها.

أما منهج التحليل المفهومي أو (التوليدي) فهو يناقض المنهج التوزيعي، ويعتمد على الاستنتاج والعقلانية والذهنية، وعلى النظرية التصورية (أو العقلية) للإنجليزي جون لوك (1632-1704) الذي يقول إن استعمال الكلمات يجب أن يكون الإشارة الحساسة إلى الأفكار، وأن الأفكار التي تمثلها تعد مغزاها المباشر الخاص، وهذه النظرية تعتبر اللغة وسيلة أو أداة لتوصيل الأفكار.

وأما منهج التحليل الإحصائي فيعتمد على نظرية الحقول الدلالية التي ترى أنه لكي نفهم معنى كلمة، فإنه يجب أن نفهم كذلك مجموعة الكلمات المتصلة بها دلاليا، وندرس العلاقات بين المفردات داخل الحقل أو الموضوع الفرعي، ولهذا يعرف Lyons معنى الكلمة بأنها محصلة علاقاتها بالكلمات الأخرى داخل الحقل المعجمي. وهدف تحليل الحقول الدلالية هو جمع كل الكلمات التي تخص حقلا معينا والكشف عن صلاتها بعضها ببعض، وصلاتها بالمصطلح العام.

ورغم أن مصطلح (السيمياء) استعمل أول الأمر في الطب للدلالة على دراسة العلامات الدالة على المرض، فإن هذا المصطلح قد انتقل من بعد إلى ميدان اللغة. ثم أصبح منهجا في المعرفة، هدفه وضع حقائق صالحة لكل الميادين التي تستعمل فيها الأنظمة العلامية اللغوية وغير اللغوية.

وهكذا يؤول بنا الحديث إلى صلب الموضوع، لنسجل بداءة؛ أن ثمة اتجاهين في التحليل السيميائي. الأول في تحليل الأدب، والثاني في تحليل مظاهر الحياة الاجتماعية.

أولا: منهج التحليل السيميائي للأدب:

ينطلق هذا المنهج من محاولة تجاوز المآخذ والنقائص المسجلة على النقد البنيوي، والمتمثلة في الرؤية المغلقة للبنية الأدبية، مما أدى إلى فصلها عن باقي

الأنظمة الدالة وإلى انفصالها عن الثقافة التي تنتمي إليها. وكذلك فقدان عناصر المعنى أو الدلالة، وانفصال العمل الأدبي عن البناء الاجتماعي الذي يحدد كيانه.

انطلاقا مما سبق يحاول النقد السيميائي تجاوز الباب المسدود الذي وجد الناقد البنيوي نفسه أمامه، لأن معالجة التقنيات وحدها لا تكفي، بل ينبغي البدء بالخطوة التالية المتمثلة في دراسة الأنظمة الدلالية والرمزية للعمل الأدبي.

فبعد اكتشاف بنية العمل الأدبي، يمكن تحليل المعاني الكامنة وراء هذه البنية، وهكذا تنفتح مغاليق عالم المعاني في النص الأدبي بوساطة القراءة التأويلية الرمزية التي تحاول رصد شبكة الرموز ومعرفتها، وفك (شفرة) العمل الأدبي وفقا للمبادئ السيميولوجية التي نظمت العلاقة بين النص ومرسله ومتلقيه على أسس علمية سليمة.

فالعمل الأدبي نظام دلالي، وهدفه إيجاد معنى عام في العالم، ويمكن أن يعاد تفسير العمل الأدبي إلى ما لا نهاية. ذلك أن الأدب، بما هو لغة، هو نظام من الرموز، وكيانه يكمن في النظام لا في الرسالة، وهو يتكون من تقديم مستمر للمعنى، ومن إخفاء مستمر لذلك المعنى في الوقت نفسه.

وإذا كان الأمر ذلك، فإن الناقد ليس مدعوا لإعادة ترتيب "رسالة" العمل الفني فحسب، بل لإعادة ترتيب "نظامه" فحسب.

يقول رولان بارت: «إن اللغة والأدب يخوضان اليوم عملية انسحاب أحدهم عن الآخر، وهذا الالتحام الجديد بين الأدب واللغة يمكن أن أسميه مؤقتا النقد السيميولوجي، حيث أنني لا أجد اصطلاحا آخر أوفق منه، وليس النقد السيميولوجي مرادفا للأسلوبية في ثوبها الجديد، بل هو جهد أكبر وأبعد منها بكثير. ذلك أن النقد السيميولوجي لا يهتم بالصيغ التي قد تأتي عفوا، بل يهتم بالعلاقة الوثيقة بين الكتاب واللغة، وهذه العلاقة لا تعني عدم الاهتمام باللغة

بوصفها علما، بل تتطلب الرجوع المستمر إلى حقائق الأنثروبولوجيا اللغوية على الرغم من أنها قد تبدو حقائق أولية».

ويبدأ (التحليل السيميولوجي) للنص الأدبي بالقراءة، وهي قراءة تختلف عن قراءة النقاد العادية، بانفتاحها الدائم، ويرجع هذا الانفتاح إلى عدة أسباب أهمها أن النص يعني شيئا على مستويات عديدة في المكان، وفي لحظات عديدة في الزمان. لذا تختلف كل قراءة عن القراءات الأخرى.

والقراءة السيميولوجية تبرز هذا التعدد. وإن اكتشاف البنية والحديث عنها يعني الاختيار، ولتجنب المآخذ ينبغي القيام بعدة قراءات متوازية، ولا يمكن للقراءة السيميولوجية أن تكون نهائية، لأن كل قراءة جديدة تبرز سنن Codes أخرى.

والقراءة السيميولوجية للنص هي مرحلة أولى تسبق تحليل كافة الإمكانات التي يشتمل عليها، ويختار الناقد السيميولوجي إحدى هذه الإمكانات، ويعيد بناءها في تفسير معين. وينبغي بالطبع، أن لا يكون هذا التفسير صورة طبق الأصل من النص الأول، فتفسير الناقد السيميولوجي هو نص جديد.

ويعتمد التحليل السيميولوجي على بعض المفاهيم الأساسية من مثل: العلامة، والمعنى المصاحب، والمعنى الاصطلاحي...الخ

فالعلامة تتكون من (دال) و(مدلول)، وعلم العلامات يدور حول العلامات وعلاقاتها البنيوية، والعلامة وحدة دالة من وحدات الرسالة، لا توجد بمفردها فهي دائما على علاقة إما بوحدة أخرى أو بوحدات أخر، والوحدات المترابطة تكون ما يسمى (بالنظام) في العلاقة التركيبية.

وتحلل العلامة بالنسبة إلى العلامة الأخرى، ففي العلامة الدلالية تحلل ابتداء من وظائفها المعجمية (المعنى، المضمون...الخ)، وفي العلامة العلمية تحلل العلامات في سلسلة التواصل والمحيط الاجتماعي.

والمرحلة التالية: (بعد القراءة) هي الانتقال من المرحلة المادية إلى مرحلة المعنى، وبما أن المعاني ليست ثابتة أو مثالية وإنما تتوقف على المحيط الثقافي والعصر، وعلى كل من المرسل والمتلقي، فإن المعنى يصبح علاقة معينة بين أناس يتصلون فيما بينهم في فترة ما.

وعلى هذا يمكن القول أن معنى الكلمات الذي نجده في المعاجم ليس دائما نفس المعنى الذي نجده في التواصل الفعلي، وعلم العلامات لا يهتم إلا بالمعنى الأخير.

وهذا يعني أنه يمكن أن يكون لـ(الدال) الواحد (مدلولات) متعددة، وأن كل قراءة جديدة يمكن أن تكون تفسيرا مختلفا.

و(المعنى المصاحب) يعطي مجالا من المعاني يختلف باختلاف الناقد أو الباحث. وإذا كان لكل دال مدلولات عديدة، فإن التواصل الفعلي لا يتم إلا إذا نسب المتلقي إلى الدال المدلول الذي أراد المرسل أن ينسبه إليه.

والمتلقي يختار المدلول وفقا لسياق التواصل، وبالتالي يمكن ترتيب المدلولات على النحو التالي:

مدلولات مترابطة ترابط إجباريا (المعنى الاصطلاحي)

ومدلولات مترابطة ترابطا حرا (المعنى المصاحب)، وتوجد المجموعة الثانية عندما يرفض السياق المعنى العادي أو يطلب معنى مساعدا.

والمعنى المصاحب صورة من (المعنى الاصطلاحي) ولا يمكن أن يكون له وجود مستقل عن هذا الأخير. وعلم العلامات لا يبحث عن الحقيقة الذاتية، بل يحاول أن يبرز السنن الموجودة في نسيج النص، ومن بينها المعنى المصاحب.

ونظرا لأن المعنى المصاحب ليس المعنى الأول، فإنه يتطلب مزيدا من الانتباه من قبل المتلقي. فعندما يرى المتلقي مثلا ميزانا -في محيط ثقافي معين وفترة معينة- ينسب إليه نوا معنى العدالة، دون أن يمر بالمعنى الأول للميزان

كأداة لوزن الأشياء. وفي هذه الحال يكتسب المعنى المصاحب معنى اجتماعيا يصبح معه معنى اصطلاحيا. هكذا الأمر بالنسبة للهلال الأحمر الذي يفسره المتلقي مباشرة على أنه علامة للصيدلية.

إذن تحليل المقاطع هو العملية الأولى الأساسية في أي تحليل سيميولوجي، فعندما نحلل النص وحدة واحدة؛ نعثر على أبنية (التيمات thémes موضوعات)،والصور المرتبطة بها، والبناء العام للمسرحية، والبحث عن الوحدات الصغيرة وتحليلها يمكننا من إعادة تكوين الأبنية العامة للنص.

ويتميز تحليل المقاطع باعتماده على محور التوزيع، وعندما تجمع قطع التحليل المبعثرة يمكن إعادة بنائها حول بعض التيمات. هكذا تتراكب القراءة المقطعية، وتعمل في آن واحد عدة شبكات لا تفرق بينما إلا الأولية التي نعطي لهذا الجانب أو ذاك أثناء القراءة.

وعندما نقرأ نصا نجد أن البينة الأفقية هي أكثر الأبنية وضوحا، و هي مكونة من سلسلة من الأفعال و المعاني. والمقطع مجموعة صغيرة مغلقة من الأفعال والأقوال. وكلما تدخل عنصر هام يعمل على تطوير الأحداث انتقلنا من مقطع إلى آخر.

وتوجد داخل المقطع الواحد مقاطع صغرى، هي عبارة عن مجموعات غير متحركة.

ولكي نقوم بتحليل أساسه المقاطع يجب أن نبدأ بقراءة النص كلمة كلمة، ثم نعيد بناءه في شكل أبنية مقطعية، دون أن نأخذ بعين الاعتبار تقسيمه إلى فصول أو لوحات.

ونلاحظ عند التحليل أن بعض الأبنية تبرز أكثر من غيرها، لذا يمكن ترتيبها وفقا لمجموعة من التيمات، على محور التوزيع. عندئذ نستطع أن ندع

جانبا تحليل المقاطع التفصيلي، لكي نهتم بتحليل التيمات وفقا للتسلسل الزمني، وكلما احتاج نص محدود إلى تفسير إضافي عدنا إلى تحليل المقاطع.

ولكن يجب أن يكون تحليل المقاطع تحليلا مفتوحا، بمعنى ألا يكون منحازا، وألا يصدر أحكاما، ويقوم الناقد بعملية اختيار بين الأبنية المقترحة التي تبرز أثناء التحليل، وبعملية فرض أبنية جديدة في النص النقدي.

هكذا يمكن أن نلخص التحليل السيميائي لنقصة مثلا حسب غريماس وكريستيفا في مستويين:

1. البحث عن البناء الظاهر وينصب فيه الاهتمام على المستوى اللغوي للنص، كالشكل والأسلوب.
2. البحث عن المدلول الضمني، وينصب فيه الاهتمام على البنية الوظائفية، وعلى العلاقة بين الفاعلين.

وهذا المستوى الضمني ينقسم بدوره إلى نوعين: التركيب الوظائفي الأفقي والتركيب الوظائفي العمودي.

أما التركيب الوظائفي في المستوى الأفقي(الظاهر) فتدرس فيه:

علاقات الكاتب بالنص، وعلاقات القارئ بالنص، وكذلك الأبعاد الزمانية والأبعاد المكانية. ومظاهر الفن الروائي: الحبكة، والشخصيات، وطرق الكتابة القصصية عند الكاتب، وكذلك التركيب الأسلوبي(التكيف والتقابل).

وأما التركيب الوظائفي في المستوى العمودي (الضمني)، فتدرس فيه:

مظاهر السرد القصصي ووظائفه، كذلك التركيب الوظائفي، والتعارضات الأساسية والفرعية(البطل، البيئة، الثقافة وأنواعها)

إن القراءة الأدبية إذا لم تتم على نحو من التبصر والتأمل، يجعل القارئ يغير من نظرته إلى الكون والحياة، أو يعمق من هذه النظرة فإنها ليست أكثر من قراءة سطحية عابرة، بينما ينبغي أن تكون القراءة شرودا وتأملا، ثم إبداعا لدى

الأديب أو الناقد. لأن مثل هذه القراءة هي التي تغني النص وتثريه، وتفتح له آفاقا واسعة على الإبداع.

هكذا نتبين أن القراءة ذات مستويات عديدة، وأن أفضلها القراءة التي تتعامل مع النص تعاملا صبورا، فتستجلي جوهرها باعتباره بنية لغوية رمزية ذات دلالات متعددة، تنعكس لا على نحو مباشر. فإذا استطاع القارئ –الناقد أن ينجح في الكشف عن العلاقات البنيوية في النص الأدبي وعن أنساقه ورموزه؛ كشف لنا النص عن معناه الحقيقي. وعندئذ نكون قد ملكنا النص، بعد أن كان قد ملكنا في مرحلة القراءة. كما نكون قد ميزناه بصفته عملا يأخذ من الواقع، ويستقل عنه في آن.

ومن الطبيعي أن يدخل القارئ عالم النص وهو غير خال من الأفكار المسبقة، ولكن النقد الموضوعي والأمانة العلمية يقتضيان ألا تؤثر هذه الأفكار على معنى النص الأدبي، وألا تدمج في ما يريد النص أن يقوله، وإن جيء بها على سبيل المقارنة فقط.

ومثل هذه القراءة المطلوبة الفاحصة التي ترفدها ثقافة واسعة، لا يمكن أن تكتفي بالوقوف عند حدود المعاني في النص أو البحث عن الصور البلاغية التقليدية فيه، وإنما هي تتجاوز ذلك كله إلى المعاني غير المباشرة والتي عبر عنها النص، أو بالأحرى إلى البنية التحتية للأدب. وهذه هي القراءة الإنسانية/الإبداعية التي تقود إلى(النقد السيميائي الذي (يحاور فيه النص نفسه)، ويتتبع فيه الناقد الأصوات العديدة داخل النص الأدبي، وهو ما نجده لدى رولان بارت في مرحلته السيميائية، وفي منهج جوليا كريستنفا

ثانيا: **منهج التحليل السيميائي لمظاهر الحياة الاجتماعية:**

الاتجاه الثاني في التحليل السيميائي يتناول مظاهر الحياة الاجتماعية، ويتعمق فيها وعلاقاتها. وقد حاول رولان بارت في كتابه(س/ز) أن يوضح كيف

يمكن للنص أن يكون مولدا لقراءات عديدة، تعتمد على مجموعة من أنظمة الرموز المتراكمة والمتشابكة، ليصبح هدف النقد تحرير النص من أسر البعد الواحد، وتصحيح انتشاره الدلالي، وذلك بإعادة تنظيم أنظمة الرموز وأشكال الدلالة التي يضمها في ثناياه وأعماقه. كما أوضح في كتابه (ميثولوجيات) كيف أن مجتمعنا الذي يبدو للوهلة الأولى عقلانيا؛ يتبنى كثيرا من (لأساطير) الحديثة، فالإيمان بالخمرة مثلا هو فعل جماعي قسري في فرنسا، ومن لم يؤمن به فهو إما مريض أو عاجز، ومن يعاقر الخمرة يعط شهادة حسن سلوك، لأن معرفة الشرب تقنية وطنية تقيم الفرنسي وتظهر مدى مخالطته للناس. فالخمرة -إذن- متجمعته، لأنها تؤسس أخلاقية، وتزين الاحتفالات: مع الفطور، والأعياد، وأثناء الأحاديث، وداخل الخمارات، في الحر، وفي القر، وغياب الخمرة يصدم الفرنسي.

ويناقش بارت رسوخ مثل هذه (الأساطير) الحديثة: الخمرة وشرب الحليب صباحا و(البيفتيك) المشوية، والسيارات، والعضلات، والأدب...الخ.

ويبين كيف يسير المجتمع وراء (أسطورة) أو وهم دون وعي، ويصل إلى «إننا لا ندخن سجائر، وإنما صورا عن السجائر، والنساء لا يتزين مستحضرات تجميل ملطفة أو مجففة أو مجددة للشباب، وإنما يقتنين صورا عن الشباب والشهرة والحب، وهنا تمكن أهمية (الماركة)، فالتجار يبيع رموزا، وتستمد هذه الرموز نشاطها من جذور لاواعية، لا تمت إلى العقلانية بصلة).

ويورد (فانس باكار) في كتابه: (الإقناع السري) قصة الخوخ المجوف الذي أحجم الناس عن شرائه في الخمسينيات، مما جعل منتجيه يقعون في ضائقة مادية، فلجأوا إلى عالم نفس خبير في شؤون الدعاية والإعلان، فأصدر لهم دعايات تصور الخوخ بألوان زاهية إلى جانب الرياضيين والشباب. وكتب تحتها: (العالم لكم، الخوخ المجفف بلون دمك، إنه يصبغ خديك بالأحمر). وهكذا نجح

البيع، والتهم الناس (الأسطورة). واليوم توكل الانتخابات إلى وكالات الإعلام كـــي يصار إلى إظهار المرشح في الوقت المناسب وبالشكل المناسب.

إننا نحيا في زمن تطغى فيه ثقافة الصورة (العلامة طبعا)، وليس أفيـــون الشعوب اليوم سوى هذه الشاشة الصغيرة (التلفزيون) بدعاياتها الكثيرة التي تحاول إقناعنا بأن (العلامات) هي الأشياء. فهل هي حقا كذلك، وهل إن السيمياء حقيقة أم هي الأخرى أسطورة حديثة؟